صفاته

نحن على هذا أمام رجل لا كالرجال. رجل عبقرى، أو رجل ممتاز من خاصة الخليقة الذين لا يعدون فى الزمن الواحد بأكثر من الآحاد.

أنقول رجل قوى؟ نعم هو رجل لا مراء. وكل عظيم فهو قوى بمعنى من معانى القوة. نعلم هذا فنعلم الشىء المهم عنه. ولكن بعد هذا لا نعلم شيئا مهما عن صفاته وأخلاقه. لأن الناس من حيث القوة أقوياء وضعفاء أو متوسطون ومنحرفون إلى هنا تارة أخرى. أما من حيث الصفات والأخلاق فهم ألوف وألوف، وهم فى قوتهم أو ضعفهم أنماط لا تحصى من المناقب والعيوب، وأحرى بنا أن نقول أن القوة صفة تستفاد من جملة مناقب الإنسان وعيوبه، فهى حالة تدل عليها المناقب والعيوب أو تدل عليها الصفات والأخلاق، وليست هى بالحالة التى تدلنا على مناقب الإنسان وعيوبه وتهدينا بغير هاد إلى صفاته وأخلاقه.

فإذا قلت إن عمر بن الخطاب رجل قوى فما زدت على أن تقول إنه رجل عبقرى أو أنه رجل عظيم.

وكل رجل من هذا القبيل فمعرفته ليست الأمر اليسير، لأنه نمط لا يتكرر فيسهل فهمه بالقياس إلى أمثاله الكثيرين. وقد يكون الرجل العظيم نمطًا حيدًا فى التاريخ كله لا نظير له فى تفصيل أخلاقه وصفاته، وإن ساواه فى القدر أنداد وقرناء.

وعمر بن الخطاب مثل فذ من أمثلة هذا الطراز الفريد. تفهم سره فإذا هو على وفاق مع جهره، وتنفذ إلى باطنه فإذا هو مصدق للظاهر من سيماه[1].

فهل حللنا العقدة بهذا التقريب بين الظاهر والباطن وبين الجهر

---

(١) سماه: علامته، والمراد ما اشتهر به.

والسريرة؟ كلا. ولا تقدمنا بعيداً فى طريق حلها، لأننا لا نعرف هذا التقارب إلا بعد معرفة السريرة التى نبحث عنها، فلابد إذاً من البحث ولابد من المعرفة. فإذا وصلنا إلى الغور البعيد عرفنا ساعتئذ أنه لا يناقض الظاهر المكشوف. ولكن لابد من الوصول إلى الغور البعيد قبل ذلك.

لا تناقض فى خلائق عمر بن الخطاب، ولكن ليس معنى ذلك أنه أيسر فهماً من المتناقضين، بل لعله أعضل فهماً منهم فى كثير من الأحوال. فالعظمة على كل حال ليست بالمطلب اليسير لمن يبتغيه، وليست بالمطلب اليسير لمن ينفذ إلى صميمه ويحتويه.

إنما الأمر الميسور فى التعريف بهذا الرجل العظيم أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جداً لا يسترها حجاب. فما من قارىء ألم بفذلكة صالحة من ترجمته إلا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلا، وكان رحيماً، وكان غيوراً، وكان فطناً، وكان وثيق الإيمان، عظيم الاستعداد للنخوة الدينية.

فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان الوثيق صفات مكينة فيه لا تخفى على ناظر، ويبقى بعد ذلك أن يعلم كيف تتجه هذه الصفات إلى وجهة واحدة ولا تتشعب فى اتجاهها طرائق قدداً[1] كما يتفق فى صفات العظماء.. بل يبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف يتمم بعض هذه الصفات حتى كأنها صفة واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان.

وأعجب من هذا فى التوافق بين صفاته أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى ولا تستمدها من ينبوع واحد. ثم هى مع ذلك متفقة لا تتناقض، متساندة لا تتخاذل، كأنها لا تعرف التعدد والتكاثر فى شىء.

---

(١) طرائق وقدد: فرق مختلفة.

خذ لذلك مثلاً عدله المشهور الذى اتسم به كما لم يتسم قط بفضيلة من فضائله الكبرى. فكم رافدة[1] لهذا الحق الجميل فى نفس ذلك الرجل العظيم؟

روافد شتى: بعضها من وراثة أهله، وبعضها من تكوين شخصه. وبعضها من عبر أيامه، وبعضها من تعليم دينه، وكلها بعد ذلك تمضى فى اتجاه قويم إلى غاية واحدة لا تنم على افتراق.

لم يكن عمر عادلا لسبب واحد بل لجملة أسباب:

كان عادلا لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه، فهو من بيوت بنى عدى الذين تولوا السفارة والتحكيم فى الجاهلية، وراضوا أنفسهم ذلك جيلاً بعد جيل على الإنصاف وفصل الخطاب، وجده نفيل بن عبد العزى هو الذى قضى لعبد المطلب على حرب بن أمية حين تنافرا إليه وتنافسا على الزعامة، فهو عادل من عادلين، وناشىء فى عهد الحكم والموازنة بين الأقوياء.

وكان عادلاً لأنه قوى مستقيم بتكوين طبعه، وإن شئت فقل أيضًا بتكوينه الموروث. إذ كان أبوه الخطاب وجده نفيل من أهل الشدة واليأس، وكانت أمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة قائد قريش فى كل نضال. فهو على خليقة الذى لا يحابى لأنه لا يخاف، والذى يخجل من الميل إلى القوى لأنه جبن، ومن الجور على الضعيف لأنه عوج يزرى بنخوته وشممه.

وكان عادلاً لأن آله من بنى عدى قد ذاقوا من أقربائهم بنى عبد شمس وكانوا أشداء فى الحرب يسمونهم لعقة[2] الدم، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس إلى عدد أقربائهم، فاستقر فيهم بغض القوى المظلوم

---

(١) رافدة: الرافد ما يمد النهر بالماء من قناة أو نهير.

(١) لعقة الدم: سموا كذلك لأنهم تحالفوا مع غيرهم فنحروا جزوراً فلعقوا دمها أو غمسوا أيديهم فيه.

الظلم وحيه للعدل الذى مارسوه ودربوا عليه، وساعدت عبر الأيام على تمكين خليقة العدل فى خلاصة هذه الأسرة أو خلاصة هذه القبيلة، ونعنى به عمر بن الخطاب.

وكان عادلاً بتعليم الدين الذى استمسك به وهو من أهله بمقدار ما حاربه وهو عدوه. فكان أقوى العادلين كما كان أقوى المتقين والمؤمنين.

وكذلك اجتمعت عناصر الدولة الوراثة الشعبية، والقوة الفردية، وعبر الحوادث وعقيدة الدين فى صفة العدل التى أوشكت أن تستولى فيه على جميع الصفات.

كان عادلاً لأسباب كأنه عادل لسبب واحد لقة التناقض فيه. وربما كان تعدد الأسباب هو العاصم الذى حمى هذه الصفة أن تتناقض فى آثارها. لأنه منحها القوة التى تشدها كما يشد الحبل المبرم فلا تتفكك ولا تتوزع، فكان عمر فى جميع أحكامه عادلاً على وتيرة واحدة لا تفاوت بينها. فلو تفرقت بين يديه مائة قضية فى أعوام متباعدات لكنت على ثقة أن تتفق الأحكام كلما اتفقت القضايا.. كأنه يطبعها بطابع واحد لا يتغير.

إلا أن الصفات إذا بلغت هذا المبلغ من القوة الرائعة لم تكد تسلم من طروء التناقض عليها سلمت منه بطبيعتها. لأنها تدخل فى صفات البطولة التى تثير الإعجاب والمبالغة، وكل بطولة فهى عرضة للمبالغات والإضافات، ومن ثم لا تسلم من تناقض الأقاويل.

وصفات عمر كلها لها طابع البطولة وفيها دواعى الإغراء بالإعجاب والمبالغة. وممن؟ من الأصدقاء المصدقين لأنهم لا يتهمون بقصد السوء وهم فى الواقع أولى بالاحتراس من الخصوم المتهمين.. فمن هنا يجىء التناقض لا من طبيعة الصفات التى تأباه.

فالعدل مثلاً هو المساواة بين أبعد الناس وأقربهم فى قضاء الحقوق وإقامة الحدود، وليس أقرب إلى الحاكم من ابنه.

فإذا سوى الحاكم بين ابنه وسائر الرعية فذلك عدل مأثور به الحاكمون.

ولقد سوى عمر بين أبنائه وسائر المسلمين فبلغ بذلك مبلغ البطولة فى هذه ا لصفة النادرة بين الحكام.

وذلك كاف فى تعظيم قدرة، لا حاجة يعده إلى مزيد.

إلا أنها صفة من صفات البطولة التى تروع وتعجب وتملأ النفس بالرغبة فى التحدث بها والإطناب فى أحاديثها. فهى لا تكفى المبالغين حتى يجعلوا عمر مقيمًا للحد على ابنه، مشتدًا فى عقوبيته اشتدادًا لا يسوى فيه بينه وبين غيره. ثم لا يكتفى المبالغون بهذا حتى يموت الولد قبل استيفاء العقوبة، فيمضى عمر فى جلده وهو ميت لا تقام عليه الحدود! ومن اعتدل من المبالغين لم يذكر الموت وإتمام العقوبة وذكر لنا أن الولد مات بعد ذلك بشهر بعد ذلك من مرض الضرب الذى ثقل عليه، وعجز عن احتماله.

نعنى بما تقدم قصة عبد الرحمن بن عمر فى مصر وهى كما رواها عمرو بن العاص والى مصر يومئذ حيث يقول: " . . دخلاً - عبد الرحمن ابن عمرو وأبو سروعة - وهما منكسران، فقال: أقم علينا حد الله، فإنا قد أصبنا البارحة شرابًا فسكرنا. فزبرتهما[1] وطردتهما، فقال عبد الرحمن: إن لم تفعل أخبرت أبى إذا قدمت عليه. فحضرنى رأى وعلمت أنى إن لم أقم عليهما الحد غضب على عمر فى ذلك وعزلنى وخالفه ما صنعت، فنحن على ما نحن عليه إذ دخل عبد الله بن عمر، فقمت إليه فرحبت به وأردت أن أجلسه فى صدر مجلسى فأبى على وقال: أبى نهانى أن أدخل عليك إلا أن لا أجد من ذلك بدًا. إن أخى لا يحلق على رؤوس الناس. فأما الضرب فاصنع ما بدا لك".

قال عمرو بن العاص: " وكانوا يحلقون مع الحد، فأخرجتهما إلى

---

(١) زبرتهما: زجرتهما ونهرتهما.

صحن الدار فضربتهما الحد، ودخل ابن عمر بأخيه إلى بيت من الدار فحلق رأسه ورأس أبى سورعة، فوالله ما كتبت إلى عمر بشيء مما كان حتى إذا تحينت كتابه إذا هو نظم فيه:

"بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى العاصى ابن العاص.

"عجبت لك يا ابن العاص ولجرأتك على خلاف عهدى.. فما أرانى وإلا عازلك فمسيء عزلك. تضرب عبد الرحمن فى بيتك وتحلق رأسه فى بيتك وقد عرفت أن هذا يخالفنى؟ إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت ألا هوادة لأحد من الناس عندى فى حق يجب لله عليه. فإذا جاءك كتابى هذا فابعث به فى عباءة على قتب[1] حتى يعرف سوء ما صنع".

قال: "فبعث به كما قال أبوه وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه، وكتبت إلى عمر كتابًا أعتذر فيه وأخبره أنى ضربته فى صحن دارى، وبالله الذى لا يحلف بأعظم منه أنى لأقيم الحدود فى صحن دارى على الذمى والمسلم، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر.

قال أسلم: "فقدم عبد الرحمن على أبيه فدخل عليه، وعليه عباءة ولا يستطيع المشى من مركبه. فقال: يا عبد الرحمن فعلت كذا؟ فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال: يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد مرة. فلم يلتفت إلى هذا عمر وزبره. فجعل عبد الرحمن يصيح: أنا مريض وأنت قاتلى! فضربه وحبسه، ثم مرض فمات رحمه الله".

فهذه قصة تتوافق خبارها ومن رويت عنهم، فلا نستغربها بها فى جميع تفصيلاتها إلا حين تطرأ عليها المبالغة التى تتسرب إلى كل خبر من أخبار

---

(١) القتب: الرجل الصغير على قدر سنام البعير.

البطولات المشهورة وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التى لا يوجبها الدين ولا تقبلها الفطرة الإنسانية، فيقيم عليه الحد وهو ميت، أو يعرضه للموت من أجل حد أقيم.

هذا هو الغريب الذى استوقفنا فأنكرناه، ومضينا فى تمحيصه فطابق التمحيص ما قدرناه. أما سائر القصة فلا غرابة فيه من كل نواحيه، بل هو من القصص التى يستبعد فيها التلفيق والاختراع.. إلا أن يكون الملفق من حذاق الرواة ومهرة الوضاع.

ولو كان المصدر واحداً معروفًا بالحذق فى القصص لحسبناها من وضعه وتلفيقه ولكنها سمعت من غير مصدر موثوق به، فهى أقرب إلى الواقع فيما يشبهه ويجرى مجراه.

فعبد الرحمن بن عمر يذهب إلى الوالى لأنه شرب شيئًا ظنه غير مسكر فإذا هو قد سكر منه، ولا مناص من إقامة الحد عليه وإلا رفع إلى أبيه.. هى شنشنة[1] عمرية لا لبس فيها، وهو ابن عمر لا مراء.

والوالى. ومن الوالى؟ عمرو بن العاص الذى لا خفاء بدهائه ولا يبعد حسابه، فهو يتريث بادىء الأمر ويحاول أن يصرف الفتى إذا طاب له الانصراف دون أن يقيم الحد عليه.. وهى أيضًا شنشنة لا غرابة فيها. فمن يدرى؟ ألا يجوز أن يصبح هذا الفتى أخا للخليفة أو مدبراً للسلطان معه فى يوم غير بعيد؟

والخليفة يدرى بالأمر فيهوله ويستكبر أن يخفيه عنه واليه فلا يصل إليه نبؤه من قبله، وهو ما هو فى تخرجه من تبعة غافلا عنها، لحرص الولاة على تحرى هواه وابتغاء رضاه. فيشفق أن يقع ابنه ثم ينجو من الحد الذى

(١) الشنشنة: الخلق والطبيعة.

شرعه الدين وهو مسئول عن الولاة والحدود، ومسئول عن ذوية الأقربين قبل سائر المسلمين.

كل أولئك كما قلنا سائغ لا غرابة فيه.

أما الغريب من عمر حقًا فى معدلته وعلمه بالدين وكراهت رياء الناس فهو أن يتم على ابنه الحد وهو ميت، أو يشتد فى إقامة الحد على ابنه حتى يتلف أو يصاب بما يتلفه بعد أيام.

فلا موجب لذلك من حكم دين ولا اتقاء تبعة.

وهو مع هذا مخالف لما عرف عن عمر فى إقامة الحدود خاصة وفى مثل هذه العقوبة بعينها.

فقد جيء له يومًا بشارب سكران، وأراد أن يشتد عليه فقال له: لأبعثنك إلى رجل لا تأخذه فيك هوادة فبعث به إلى مطيع بن الأسود العبدى ليقيم عليه الحد فى غدة. ثم حضره وهو يضربه ضربًا شديدًا فصاح به: قتلت الرجل. كم ضربته؟ قال: ستين، قال: أقصى[1] عنه بعشرين. أى رافع عنه عشرين ضربة من أجل شدتك عليه فيما تقدم من الضربات.

وقد كاد من دأبه أن يتريث فى إقامة الحدود، حتى ليؤثر - كما قال - تعطيلها فى الشبهات على أن يقيمها فى الشبهات.

ومر بقوم يتبعون رجلا قد أخذ فى ربية فقال: "لا مرحبًا بهذه الوجوه التى لا تروى إلا فى الشر".

وربما غضب على الوالى من كبار الولاة لغلوه فى تقاضى الحدود على المعاصى كما فعل فى إنذاره الشديد لأبى موسى الأشعرى حين جلد شاربًا

---

(١) أقصى حد له بقصاصة - أى أقم القصاص عليه بحذف عشرين. ولعل الأصل أقص عنه عشرين أى أنقص عنه عشرين، وزيادة الياء من تحريف الرواة.

وحلق شعره وسود وجهه ونادى فى الناس ألا يجالسوه ولا يؤاكلوه. فأعطى الشاكى مائتى درهم وكتب إلى أبى موسى (لئن عدت لأسودن وجهك ولأطوفن بك فى الناس) وأمره أن يدعو المسلمين إلى مجالسته ومؤاكلته وأن يمهله ليتوب ويقبل شهادته إن تاب.

وتفقد رجلاً يعرفه فقيل أنه يتابع الشراب. فكتب إليه: أنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا الله هو " غافر الذنب وقابل التوب الشديد العقاب ذى الطول لا إله إلا الله هو إليه المصير "[1] فلم يزل الرجل يرددها ويبكى حتى صحت توبته وأحسن النزع[2]، وبلغت ثوبته عمر فقال لمن حضروا مجلسه: هكذا فاصنعوا. إذا رأيتم أخًا لكم زل زلة فسددوه ووفقوا وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه.

وقد تكرر منه إعفاء الزانيات من الحد لشبهة القهر والعجز عن المقاومة، وتكرر منه الإعفاء لمثل هذا العذر فى غير ذلك من الحدود.

فلم يكن عمر بالسريع المتعطش إلى إقامة الحد، ولم يعرف عنه قط أنه أقام حداً وله مندوحة عنه.

وفى قصة ولده منادح شتى ترضيه على شدة تحرجه وتحريه. ثم لا حاجة بمثله إلى رياء العدل فيجور على ابنه ويسرف فى القسوة عليه، ليقال إنه سوى بينه وبين غيره.

وأصح من ذلك أن نأخذ برواية عبد الله بن عمر وهو أحق الناس بالمبالغة فى عدل أبيه لو كانت المبالغة مما يجعل بمثله. فقد روى هذه القصة فقال ما خلاصته: إن أخاه عبد الرحمن وأبا سروعة عتبة بن الحارث سكرا فلما أصبح انطلقا إلى عمرو بن العاص وهو أمير مصر فقالا: طهرنا فإنا قد

---

(١) آية٢ من سورة غافر.

(٢) أحسن النزع: كف عما كان فيه وأنهى.

سكرنا من شراب شربناه.. ! ولم أشعر أنهما أتيا عمرو بن العاص، فقلت: والله لا يخلق اليوم على رؤوس الأشهاد. ادخل أحلقك!.. وكانوا إذ ذاك يحلقون مع الحد، فدخل معى الدار فحلقت أخى بيدى، ثم جلدهما عمرو ابن العاص، فسمع عمر بن الخطاب فكتب إلى عمر أن ابعث إلى بعبد الرحمن بن عمر على قتب.. ففعل ذلك عمرو. فلما قدم عبد الرحمن على عمر جلده وعاقبه من أجل مكانه منه. ثم أرسله فلبث شهراً صحيحًا ثم أصاب قدره، فتحسب[1] عامة الناس أنه مات من الجلد ولم يمت منه.

هذه رواية عبد الله عن أبيه وأخيه، ولو كان الأمر مبالغة فى عدل عمر لكان الابن أحق الناس بهذه المبالغة، أو كان الأمر رحمة بعبد الرحمن لكان الأخ أحق الناس بهذه الرحمة. ولكنه أمر صدق لا نقص فيه ولا زيادة.

فالذى يجوز لنا أن نقبله من هذه القصة هو الجانب الذى يستقيم مع خلائق عمر ولا يناقضها. وهو العدل الصحيح فى محاسبة ولده على ذنبه ولا زيادة، ولاسيما الزيادة التى لا تستقيم مع عدله ورحمته على السواء. وكلا العدل والرحمن من صفاته الأصلية فيه.

نعم كانت الرحمة من صفاته التى وازنت فيه العدل أحسن موازنة.. فما عهد فيه أنه أحب العدل لغضه من الأقوياء المعتدين، كما كان يحبه لنجدته الضعيف المعتدى عليه.

ولا يمنعن ذلك أنه كان خشن الملمس صعب الشكيمة جافًا فى القول إذا استغضب واستثير، فليست الخشونة نقيضًا للرحمة، وليست النعومة للقسوة، وليس الذين لا يستشارون ولا يستغضبون بأرحم الناس. فقد يكون الرجل ناعمًا وهو منطو على العنف والبغضاء، ويكون الرجل خشنا وهو أعطف خلق الله على الضعفاء، بل كثيراً ما تكون الخشونة الظاهرة نقابًا يستتر

---

(١) تحسب: ظن.

به الرجل القوى فـراراً من مظنة الضعف الذى يساوره من قبل الرحـمة. فلا تكون مداراة الرقة إلا علامة على وجودها وحذراً من ظهورها.

ومن المألوف فى الطبائع أن الرجل الـذى يقسو وهو معـتصم بالواجب قلما ينطبع على القسوة، ولاسيمـا إذا ان الواجب عنده شيئًا عظيمًا يزيل كل عقبة ويبطل كل حجة، ويقطع كل ذريـعة. فهو إنما يعتصم بالواجب فى هذه الحالة كما يعـتصم الإنسان بالحصن المنيع كلما خشى أن تقـتحم عليه طريقه، ولولا خـوف الرحمـة أن تغلبه لما كـانت به حـاجة إلى ذلك الحـصن المنيع، ولاسيـما حيـن يكون حصنًا بالغًا فـى المنعة كمـا كان الواجب عند عـمر بن الخطاب.

أرأيت هذا الرجل الصارم الحازم قاسيًا قط إلا باسم واجب أو فى سبيل واجب؟ كلا. ومـا نذكر أننا سـمعنا رواية واحدة من روايـات شدته إلا لمحنا الواجب قائمًا إلى جانبهـا يزكيها ويسوغها. ومن كانت القسوة طبـعًا فيه فما هو بحاجة إلى واجب يغريه بالقسوة، بل هو فى حاجة إلى واجبات عدة تناه عنها وتغريه باجتنابها.

وليس قصاراه فى هذا الخلق أنه غير قاسٍ أو أن الرحمة كانت تنفذ إلى قلبه كلما طرقته واتـخذت سبيلها إليه، فإذا نصيبـه من الرحمة قد كان أوفى جداً من داك، وكانت هذه الفضيلة من فضائله الأصلية فيه لا تكاد تفارقه فى عامة حياته. حتى ليصح أن تضرب الأمثال برحمته كما كانت تضرب الأمثال بعدله وأن يقرن معه لقب العادل بلقب الرحيم.

وفى صدد الكلام عن الخليفـة الإسلامى الكبير قد يهـمنا خلق الرحمة فيه خاصة، لأن شأنها فى التقريب بينه وبين الإسلام غير قليل.

فمن المحقق أن رقته للمـسلمين وللدين يدينون به كانت مقرونة فى أول الأمر برحـمته لامرأتـين ضعيفـتين رآهما فى حـالة من الشكوى تلين القلب

وتكن الغرب[1] وتمسح جفوة العناد والبغضاء.

قالت أم عبد الله بنت حتمة: لما كنا نرحل إلى الحبشة أقبل عمر حتى وقف على، وكنا نلقى منه البلاء الأذى والغلظة علينا، فقال لى. إنه الانطلاق يا أم عبد الله! قلت: نعم. والله لنخرجن فى أرض الله. آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجا. فقال: صحبكم الله، ورأيت منه رقة لم أرها قط.

وحديثه مع أخته فاطمة فى سبب إسلامه مشهور متواتر فى أوثق الروايات. فإنه ضربها حين علم بإسلامها فأدمى وجهها، فأدركها الثورة الخطابية التى فيها منها بعض ما فيه وقالت وهى غضبى: يا عدو الله! أتضربنى على أن أوحد الله؟ قال غير مترث: نعم! فقالت: ما كنت فاعلا فافعل. أشهد أن لا إله االله وأن محمداً رسول الله. لقد أسلمنا على رغم أنفك.

ويذكر لنا رواة القصة التى اتفقت عليها رويات كثيرة أنه ندم وخلى عن زوجها - بعد أن صرعه وقعد على صدره - ثم انتحى ناحية من المنزل وطلب الصحيفة التى كتبت فيها آيات القرآن، وخرج من ثمة إلى حيث لقى النبى فأعلن شهادة الإسلام على يديه.

وغير عسير علينا أن نرقب طوية عمر ونرى كيف كانت تتمشى فيها الخوالج والخطرات وهو يتحدث إلى المرأتين: بنت حنتمة، وبنت الخطاب.

فهذا بطل مناضل بشحذه النضال إذا لقى أنداده من الأبطال وأقرانه من الرجال: الإساءة تتبعها الإساءة والتحدى يعقبه التحدى، وكلما قويل البطش بمثله تضرمت سورة الغضب وثارت نحيزة القتال[2]، ومضى العداء شططًا لا

(١) تكف الغضب: تخفف له الحدة أى تلين الشديد القاسى.

(٢) النحيزة: الطبيعة والغريزة.

اعتدال فيه ولا نكوص عنه حتى ينكسر عدو من العدوين. فلا موضع هذا لرحمة ولا سبيل لها إلى ظهور. وتتمادى الشرة[1] على ذلك شهوراً وسنيناً وكأن الرحمة لم تخلق فى النفس ولم يسمع لها فى حنايا الصدو صوت.

أما المرأة الشاكية أو المرأة الدامية إذا واجهت ذلك البطل القوى فما حادة إلى التى لم تخلق وليس لها صوت مسموع! وما أقربها إذن إلى أن تخجل من أيذائها وتندم على قسوتها وتثوب إلى التوبة والخشوع، وهما من لباب الدين.

إن العرب يشتقون الرحمة من الرحم أو القرابة، وهو اشتقاق عميق المغزى يهدينا إلى نشأة هذه الفضيلة الإنسانية العالية، ومودة عمر بن الخطاب لرحمه وذوى قرباه لا تنحصر دلائلها فى رحمته لأخته الشاكية الثائرة. فإن المرأة قد ترحم لضعفها فى موقف شكواها ويأسها ولو كانت بعيدة الآصرة متقطعة النسب. إنما يدل على مودته لذوى قرباه ذلك الحب الذى كان يضمره لأبيه بعد موته مع شدته عليه وغلظته فى زجره وتأديبه. فكان يطيل الحديث عنه وينقل أخباره ويقسم باسمه. وظل يقسم باسمه وهو كهل إلى أن نهى المسلمون عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية.

وندر بين الناس من أحب كما كان عمر يحب أخاه زيداً فى حياته وبعد مماته، فما شاء أحد أن يبكيه ألا ذكره وله ففاضت شئونه، وجعل بعد قتله يتأسى بمن أصيب مثل مصابه ولا يرى أحداً فقد أخا إلا التمس الأسوة عنده.

حكى أحمد بن عمران العبدى عن أبيه عن جده قال: "صليت مع عمر ابن الخطاب الصبح، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل قصير أعور متنكباً قوسه وبيده هراوة فسأل: من هذا؟ فقيل: متمم بن نويرة. فاستنشده رثاءه لأخيه، فأنشده حتى بلغ إلى قوله:

---

(١) الشرة: الشر.

وكنا كندمـانى جـذيمـة حـقـبـة من الدهر حتى قـيل لن يتصـدعا
فلمـــا تفـــرقنـا كـــأنى ومـــالكًا لطول افـتـراق لم نبت ليلة مـعًـا

فقال عمـر هذا والله التأبين، يرحم الله زيد بن الخطاب! إنى لأحسب أنى لو كنت أقدر على أن أقول الشعر لبكيتـه كما بكيت أخاك. ثم سأله: ما أشد ما لقيت على أخيك من الحزن؟ فقال: كانت عينى هذه قد ذهبت فبكيت بالصحيحة فـأكثرت البكاء حتى أسعدتها العين الذاهـبة وجزت بالدمع. فقال عمر:

أن هذا لحزن شديد. مـا بحزن هكذا على أخد هالك. قـال متمم: لو قتل أخى يوم اليمامـة كما قتل أخوك ما بكيت أبدًا. فصبـر عمر وتعزى عن أخيه وقال: ما عزانى أحد عنه بأحسن مما عزيتنى.. "

هذا هو عمر من وراء النقاب.

فما كـان أحوجه رضى الله عنه إلى ذلك النقاب، ومـا أقل الغرابة فى ذلك النقاب من الشدة والهيبة حين ينفذ الناظر إلى ما وراء فيرى مكان الحاجة إليه.

وقد يرحم الرجل أهل الراحم والقرابة ويجفوا غيرهم من الناس، ولكن الرحـمة الأصليـة فى الطباع تسـوى فى المودة ولا تفرق، وتخلق هى سـبب الرحمة ولا تنتظر حتى تفـرضها عليها القرابة بأسبابهـا. فكان عمر كما روى "الحسن" يذكر الصـديق من أصدقائه بالليل فيقـول: يا طولها من ليلة! فإذا صلى الغداة غدا إليه، فإذا لقيه التزمه أم اعتنقه.

وكان بكاء طفل يزعجه ويقطع عليه صلاته وينغض عليه ليله.

قدمت رفـقة من النجار فنزلوا المصلى، فـاقترح على عبـد الرحمن بن عوف أن يذهبا ليحرساهم من السرق، ثم باتا يحرسان ويصليان، فسمع بكاء صبى، فتـوجه نحوه وقال لأمه: اتقى الله وأحسنى إلى صـبيك. ثم عاد إلى

مكانه فسمع بكاءه فرجع إلى أمه كـرة أخرى، ثم سمع بكاءه آخر الليل فقال لأمه: ويحك! أنى لأراك أم سوء. مـالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: عـبد اللـه قد أبرمنى مـنذ الليلة. إنى أربعـة عن الفطام[1] فـسألهـا: ولم؟ فقـالت: لأن عمر لا يفـرض إلا للفطيم! فسـألها: وكم له؟ فلمـا علم أنها فطمته دون سن الفطام أمر مناديًا فنادى ألا تعجلوا صـبيانكم عن الرضاع فأنا نفرض لكل مولود فى الإسلام.

وقصته مع الصبية الجياع مشهورة ولكنها تعاد لأنها أحق قصة بأن تعاد.

قـال أسلم: خـرجنا مع عـمـر رضى الله عـنه إلى حـرة وأقم إذا كنا بضرار[2] إذا تار تؤرث[3]: يا أسلم إنى أرى ها هنا ركـبانًا قصـر بهم الليل والبرد. انطلق بنا!

"فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بإمرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون[4]. فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء. وكره أن يقـول: يا أصحاب النار. فـأجابته امـرأة: وعليكم السلام! فـقال: أأدنوا؟ فقالت: أدن بخير أو دع. فدنا منها فـقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد. قال وما بال هؤلاء الصبيـة يتضاغون؟ قالت: الجوع! قال: وأى شىء فى هذه القدر؟ قـالت: ماء أسكتهم به حتى يـناموا.. والله بيننا وبين عمر! فقال: أى رحمك الله. وما يدرى عـمر بكم؟ فقالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟ فأقبل على فقال: انطلف بنا.

"فخـرجنا نهرول حـتى أتينا دار الدقـيق. فأخـرج عدلا[5] من دقيق وكبة[6] من شحم، وقال: احمـله على! قلت: أنا أحمله عنك. قال: أنت تحمل وزرى يوم القيامة!.. لا أم لك!

---

(١) أربعة عن الفطام: المقصود أنى أحبسه على الفطام وأعوده.

(٢) ضرار: مكان على مقربة من المدينة. (٣) تؤرث: توقد. (٤) يتضاغون: يتصايحون.

(٥) العدل: الحوالق. (٦) كبة من شحم: مقدار منه

" فحملته عليه، فانطلق معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا فجعل يقول لها: ذرى على وأنا أحر لك[1].

"وجعل ينفخ تحت القدر. وكانت لحيته عظيمة، فرأيت الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ لهم. ثم أنزلها وأفرغ الحريرة فى صحفة وهو يقول لها: أطعميهم وأنا أسطح لهم - أى أبرده - ولم يزل حتى شبعوا وهى تقول له: جزاك الله خيراً، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين. . " .

وأمثال هذه القصة فى سيرة عمر كثير، لا يقال أنها هى ومثيلاتها من الشعور بالتبعة وليست من الرحمة، لأن العهد بالشعور بالتبعة أن يأتى من الرحمة، وليس العهد بالرحمة أن تأتى من الشعور بالتبعة!

كذلك لا يقال إنه قد كان يطيع أمراً سماوياً تحركت له نفسه أو لم تتحرك. فإن النفس التى تتحرك للأمر السماوى هى النفس التى فيها الخير ولها رغبة فيه، وقلما تشفق من عقاب السماء إلا أن تشعر بألم الظلم ومبلغ استحقاقه للعقاب.

على أن عمر كان يرحم فى أمور يحول فيها النفور الدينى دون الرحمة عند كثيرين.

فمن ذلك أنه رأى شيخًا ضريراً يسأل على باب، فلما علم أنه يهودى قال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: اسأل الجزية والحاجة والسن! فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فأعطاه ما يكفيه ساعتها، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول: انظر هذا وضرباءه[2] فو الله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم. إنما الصدقات للفقراء والمساكين. والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب. . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه.

---

(١) أحر لك: أى اتخذ لك حريرة، وهى الحساء من الدقيق والدسم.

(٢) ضرباؤه: نظراؤه وأمثاله.

فهنا علمته الرحمة كيف يطيع الدين، ولن يطيع الدين هكذا إلا رحيم.

وقد فرض عمر لكل مولود لقيط مائة درهم من بيت المال كما فرض لكل مولود من زوجين، وهى رحمة قد يحجبها النفور من الزنا وثمراته فى نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون.

بل كان يرحم كل مخلوق حى حتى البهيم الذى لا يبين بشكاية، فروى المسبب ابن دارم أنه رآه يضرب رجلا ويلاحقه بالزجر لأنه يحمل جملة ما لا يطيق.

وكان يدخل يده فى عقرب البعير الأدبر[1] ليداويه هو يقول: إنى لخائف أن أسأل عما بك. ومن كلامه فى هذا المعنى: لو مات جدى بطف[2] الفرات لخشيت أن يحاسب به الله عمر، وأنه لشعور بالتبعة عظيم.

لكنه كما أسلفنا لن ينبت فى قلب كل أمير عليه تبعة، إلا أن يكون به منبت للرحمة عظيم.

فنحن إذًا بإزاء صفة كبيرة إلى جانب صفة كبيرة: الرحمة إلى جانب العدل ، وكلتاهما من البروز والوثاقة وعمق القرار بمثابة العنوان الذى يدل على صاحبه، أو بمثابة العنصر الأصيل الذى يلازمه ويلابسه ولا يفارقه فى جملة أعماله.

ومن خصائص عمر أنه كان على هذا الشأن فى جميع صفاته المشهورة، خلافًا للمعهود فى الصفات الغالية بين الناس من المحامد كانت أو العيوب. إذ قلما يوسم إنسان بأكثر من صفة غالبة بهذه المثابة من التأصل والبروز، فهو عادل أو رحيم أو غيور أو فطن وثيق الإيمان، ثم تطغى إحدى هذه الصفات على سائرها فلا تعطيها إلى جانبها مكانة رسوخ واستقرار.

---

(١) البعير والأدبر: المصاب بالدبر وهو مرض يصيب كالقرحة.

(٢) طف الفرات: بـ"شاطئه".

وعلى غير هذا العهد كان عمر فى جميع صفاته الكبيرة التى ذكرناها، فكانت كل صفة منها فى قوتها ورسوخها تكفى للغلبة على شخصية تتسم بها ولا تذكر بغيرها وإنه ليتصف بها فتأخذ من سماته ومعالمه ما يخصصها به ولو كانت من الصفات القومية الشائعة فى أبناء جلدته جميعًا، فيخيل إليك أنها سمة مميزة له لم توجد فى غيره.

فأحرارا العرب كلهم غيور. ولكنك إذا قلت "العربى الغيور" فكأنما سميت عمر بن الخطاب، لأنه طبع هذه الصفة القومية بطابعه الذى لا يشبهه فيه غيره، فكان الغيور بين الغيورين.

قال أكبر أصدقائه وأكبر العارفين به محمد عليه السلام: "إن الله غيور يحب الغيور، وإن عمر غيور".

وتحدث إلى صحبه يومًا وعمر فيهم فقال: "بينا أن نائم رأيتنى فى الجنى، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت. لمن هذا القصر؟ فقالوا: لعمر. فذكرت غيرته فوليت مدبرًا. . فبكى عمر وقال كالمعتذر: أعليك أغار يا رسول الله؟".

وكانت هذه الغيرة معروفة مخشية بين جميع من يعرفونه ويسمعون بطباعه، والنساء من باب أولى يعرفها أو يعهدنها ويتقينها كما لم يتقينها قط من غيره.

استأذن على النبى يومًا وعنده نساء من قريش يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن فدخل والنبى يضحك.

قال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله. . كأنه يسأله عن سبب ضحكه فقال عليه السلام: عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب.

قال عمر: فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يهبن. ثم التفت إليهم يقول كأى عدوات أنفسهن! أتهبنى ولا تهبن رسول الله ﷺ؟

قلن - ولا يخذل المرأة لسانها في هذا المقام: نعم أنت أغلظ رأفة من رسول الله!.

وحسبك من غيرته أنه هو الذى أشار على النبى ﷺ بحجاب امهات المسلمين، وكان يرى إحداهن ذاهبة لبعض شأنها فيقول لها: عرفتك يا فلانة! ليريها أنها فى حاجة إلى مزيد من التحجب. وقد ضجرت إحداهن منه لهذا فقالت له: وإنك علينا يا ابن الخطاب والوحى ينزل فى بيوتنا؟

على أن الغيرة فى ابن الخطاب لم تكن غيرة مقصورة على المرأة وكفى. بل غيرته على المرأة لم تكن إلا شطراً من غيرته على كل حرم وحوزة. فمن هذه الغيرة العامة سياسته العربية التى كانت تصد الغرباء عن جزيرة العرب كأنها الحرم الموصد، ومنها غيرته على الزى العربى والشمائل العربية، ومنها غيرته على العقيدة وحدود الشريعة، وغيرته على كل حق يحميه غيور.

والأحاديث عنه فى هذه الخصلة تتعدد فى معارض شىء كما تعددت أحاديث عدله ورحمته وكل صفة بارزة فيه. فشأن هذه الصفات أن يظهرن أبداً حيث ظهر له قول أو عمل، لأنهن أصيلات مطبوعات يختلطن بكل ما عمل وقال.

ألا إنك تقرؤها جميع فنخرج منها بأثر واحد لا اختلاف فيه.

ذلك أن عمر كان يغار على حق من أحد ولا ينفس على ذى نعمة.

فإذا قيل لك أن عمر قد غار فلن يخطر لك أن تسأل: ممن كانت غيرته؟ وإنما يخطر لك أن تسأل فى كل مرة: علام غار؟ ولأى شىء كان يغار؟

فهو يغار على حق، أو يغار على عرض، أو يغار على دين، أو يغار على صديق أو صاحب حرمة، ولا يغار من هذا أو ذاك لنعمة أصابها هذا أو ذاك.

إنما كان يغـار على شيء يحميه ويعـلم من نفـسه القدرة أو غلبـة إنسان على حظه.

رجل قوى، جـياش الطبع، شديد الشكيـمة، مؤمن بالحق وحـرماته، قادر على تقويم من يحيد عنها ويجترىء عليها فإن غيوراً فمن يكون الغيور؟

وقل فى ذكائه وفطنته وألمعية ذهنه ما تقول فيها اشتهر من صفات العدل والرحمة والغيرة، وإن كانت هذه الصفة أحوج منهن إلى الشرح والتحليل.

فبعض المستشرقين الذين أثنوا عليه قد عرضوا لأمر تفكيره فوصفوه بأنه محدود التفكير، أو أنه يأخذ الأمور بقياس واحد.

ونحن لا نقول إن عـمر رضى الله عنه خلق بذهن عـالم بحاثة منقطع للكشف والتنقيب ولا أنه خلق بذهن فيلسـوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر فى مـناحى الظنون والفـروض، ولا أنه خلق بذهن منـطبق يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين. فالواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه، وأنه كان معينا بالعمل قبل عنايته بالنظر أو الفرض والتقدير، ولكن الفـرق بعيـد بين هذا وبين الفكر المحـدود والنظر الذى يقيس الأمـور بقياس واحد.

فعمـر كانت له فطنة الرجل العظيم بنقائض الأخلاق وخـبايا النفوس، ولم يحكم عليها قط كـأنه يظهر إليها من جانب واحد أو يطبـعها فى تفكيره بطابع واحد. بل علم الدنيا وعلم كـيف يتقلب الإنسان، وراح فى علمه هذا يراقب الناس مراقبة الجذور، ويقيم عليهم الأرصاد إقامة الرجل الذى لا يفوته أن ينتظر منهم ما ينتظر من خير وشر وقوة وضعف وصلاح وفساد.

وكفى من كلماته الدالة عليه أن نذكر أنه كـان يحب أن يعرف الشر كما يعرف الخير، لأن "الذى لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه" وأنه كان يحب أن يعـرف الأعذار كـما يـعرف الذنوب حـيث يقـول: "أعقل الناس أعـذرهم

للناس"، وأنه هو القائل: "احترسوا من الناس بسوء الظن"، وهو القائل مع ذاك: "أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر".. يوفق فى هذين القولين بين سهر الحاكم الذى لا ينبغى أن تخفى عليه خافية، وبين عدل القاضى الذى لا ينبغى أن يحكم بغير بينة ظاهرة.

بل لو كان عمر بن الخطاب محدود التفكير ينظر إلى الأمور من جانب واحد لما كثرت مشاورته للكبار والصغار والرجال والنساء مشاورة يعلم أن جوانب الآراء تتعدد، وأن الأمور وجوها لا تنحصر فى الوجه الذى يراه، وكثيراً ما قال: "أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه". وليس استطلاع الآراء الخوف من الإعجاب بالرأى شيمة رجل محضور للتفكير ضيق المنافذ إلى الحقيقة.

وقد عاشره أناس من الدهاة فخبروه وحذروه!.. وقال المغيرة بن شعبة لعمرو بن العاص: أأنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئًا فيلقنه عنك؟ والله ما رأيت مستخليًا بأحد إلا رحمته كائنا من كان ذلك الرجل. كان عمر والله أغفل من أن يخدع وأفضل من أن يخدع.."

إنما كان عمر وصف نفسه "ليس بالخب ولكن الخب[1] لا يخدعه". وهذا هو الحد الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء المحمود المذموم، أو بين الفهم الصحيح والخبث القبيح. فهناك فطنة تسىء الظن لأنها تعرف الشرور التى فى طبائع الناس، وفطنة تسىء لأنها تشعر السوء، والفرق بينها عظيم كالفرق بين الخير والشر والمحمدة والمذمة. فالفطنة الأولى معرفة حسنة والفطنة الثانية خلق ردىء، وإنما كان عمر بالفطنة معصومًا من أن يخدع غيره أو ينخدع لغيره، وهذا هو الحد القوام الذى لا نقص فيه من جانبه.

وكانت له فى استيحاء الخفايا قدرة تقرب من مكاشفة الغيب لولا أنها

---

(١) الخب: الخداع

تستند إلى التقدير الصحيح والظن المدعوم بالخبرة، وحكاية واحدة من هذا القبيل تغنى عن حكايات، وهى حكاية مع المغيرة الذى استكثر على عمرو بن العاص أن يوحى إلى عمر بمراده ويتداهى عليه.

فقد هم عمر رضى الله عنه بأن يعزل المغيرة عن العراق ويولى جبر ابن مطعم مكانه، وأوصى جبيراً أن يكتم ذلك ويتجهز للسفر. فأحس المغيرة وسأل جليسًا له أن يدس امرأته وهى مشهورة بلقط الأخبار حتى سميت "لقاطة الحصا" لتستطلع النبأ من بيت جبير وذهبت إلى بيته فإذا امرأته تصلح أمره فسألها: إلى أين يخرج زوجك؟ قالت: إلى العمرة! قالت لقاطة الحصا: بل كتمك، ولو كانت لك عنده منزلة لأطلعك على أمره! فجلست امرأة جبير متغضبة ودخل عليها وهى كذلك، فلم تزل حتى أخبرها وأخبرت لقاطة الحصا. وذهب المغيرة إلى عمر ففاتحة بما علم وهو يقول له: بارك الله لأمير المؤمنين فى رأيه وتوليته جبيرًا! فلم يعجب عمر من وقوفه على السر بل قال: كأنى بك يا مغيرة قد فعلت كيت وكيت، كأنما سمع ورأى.. وأنشدك الله هل كان كذلك؟ قال المغيرة: اللهم نعم. ثم صعد عمر إلى المنبر ونادى فى الناس: أيها الناس! من يدلنى على المخلط المزيل[1] النسيج وحده؟ فقام المغيرة فقال: ما يعرف ذلك فى أمتك أحد غيرك!.. فأبقاه على ولايته ولم يزل واليه على العراق حتى مات.

وإنما كانت مجاراته للداهية من هذا القبيل إعجابًا بخصافته لا انخداعا بمكره، وقد يتغابى ويعمل ما يريده المتداهى عليه لأنه أدرك مرمى كلامه وفهم ما فيه من صواب، كما صنع مع عمرو بن العاص فى خطبة أم كلثوم بنت على رضى الله عنهما.. وسيأتى الكلام عنها فى فصل تال.

على أن القدرة الذهنية التى امتاز بها عمر عن الاستدلال عليها بما قال

---

(١) رجل مخلط مزيل: يجمع بين الأشياء، ويميز بينهما لقوة فكر.

وما قيل فيه وما دار بينه بعض القوم من المساجلات والمحاورات. أنه عمل لم يعمله إلا القليل من أقدر الحكام فى تاريخ بنى الإنسان. وكفى بذلك دليلاً على قدرته الذهنية لا حاجة بعده إلى دليل. ساس شعوبًا بينهما من الاختلاف مثل ما بين العرب والفرس وبين الفرس والقبط والسوريين، ونصف ولاة وانتدب قوادً وسير بعوثًا وأشرف على ميادين قتال وأقام نظمًا فى الحكومة، وراقب رعاة ورعية فيما يعلنون وما يبطنون، ونجح فى كل ما عمل نجاحًا منقطع النظير غير مردود إلى المصادفة ولا إلى ارتجال المغامرين، وليس هذا كله مما يضطلع به رجل محدود الفكر ضيق الأفق قليل الخبرة بالجماعات والأفراد. فإذا استوفى هذا الحظ الوافى من القدرة الذهنية فذلك حسبة منها وحسب كل من تصدى لمثل عمله ونهض بمثل وقره[1]. ولا عليه بعد ذلك أنه لم يفكر على نمط الفلاسفة وأقطاب لعلم وأساطين المنطق والرياضة فإن الدنيا لم تخرج لنا عمر ليزيدنا أفلاطون آخر أو إقليدس ثانيًا أو "فارداى" سابقًا فى الزمن القديم، بل أخرجته للناس ليكون مؤسس عهد ومحول تاريخ. فإذا تأدى به عقله إلى تلك الغاية فهو العقل الصائب يفكر على النحو الذى خلق له ويبلغ القصد الذى رمى إليه. وعلينا نحن أن نعرف كيف كان تفكيره وأن نسلكه بين قرنائه وأنداده.

إنما طرأت شبهة العقل المحدود على المستشرقين الذين ظنوا به هذا الظن من ناحية واحدة، وهى ناحية العدل الذى لا يلتفت ذات اليمين وذات الشمال، والقضاء الذى يكيل الجزاء دقة بدقة ولا يبالى بالتفائض والمفارقات.

ونظروا إلى جملة آرائه فى المسائل فإذ هى من الآراء التى يغلب عليها القطع الحزم والانطلاق إلى عرض مسائل لا تنحرف عند قيد شعره، كأنه قد جهل ما فى الدنيا من نقائض وخفايا ومن عوج وتعريج، أو كأنه السهم

---

(١) وفرة: حمله ومسؤليته.

الثاقب ينفـذ فيما أمـامه إلى هدفه المحدود ولا يلتـفت إلى شيء فى نفاذه أو يعوقه عاتق دونه.

فخطر لهم أن فطنته إنمـا كانت فطنه فراسة فطرية كالغـريزة التى تهتدى على استقامـة واحدة، ولكنها لا تنحرف ولا تتصرف ولا تخـالف ما جبلت عليه، وأنها فطنة العـقل المحدود والبصر والموكل بجانب واحد يـنفذ فيه ولا يحـيط به أو يتـشـعب فى نواحـيـه. والفكر المحـدود هنا هـو فكر أولئك المستشرقين لا فكر عمر بن الخطاب.

فالرجل الـذى يستقـيم على وجه واحـداً لا يجيد عنـه، هو واحد من رجلين:

فإمـا رجل يسـتقـيم على هذا الوجه لأنه لا يرى غـيره ولا يحـيط بما حوله.

وإما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه قـادر على اختراق العقبات عالم أنها تنثنى إليه حيث كان دون أن ينثنى إليها حيث كانت.

واستقامة عمر بن الخـطاب على وجهه من هذا القبيل وليست من ذلك القبيل:

هى استقامة قـدرة وليست باستقامة عجز، وهى استـقامة تصرف سريع وليست باستقامة محجور مقيد، يأبى أن يدور لأنه قد أعياه أن يدور.

هى استقامة حياة غلابة، وليست باستقامة أداة كالموازين تسوى بين التبر والتراب لأنها لا تميز بين التبر والتراب.

فالرجل الذى يجتنب التصرف فى العدل عجزا عن الفم والتزاما للحرف المكتوب ونزولا إلى مـرتبة الموازين التى لا تعى ولا تغـضب ولا تغار إنما هو آلة فقيرة فى مادة الحياة.

أما الذى يجتنب التصرف فى العدل غيرة على الضعيف وقدرة على القوى، وعلمًا بالتبعة واضطلاعا بجرائرها فذلك حى غنى بالحياة يعدل لفرط السليقة الإنسانية والقدرة الحيوية، ولا يعدل لأنه آلة تشبه الميزان الذى لا حس فيه.

وشتان بين هذا وذاك. إنهما لنقيضان وأن كانا فى ظاهر الأمر شبهين متقاربين.

والاعتماد على الأمثلة الخاصة أولى بنا فى المعرض من الاعتماد على القواعد العامة والتقريرات النظرية.

فهذه أمثلة ثلاثة من أمثلة العدل الذى يبدة لأول وهلة كأنه عدل الموازين الآلية حين تسوى بين الأوزان وإن اختلفت القيم والأقدار، وتفصل فى الانصباء بغير نظر إلى فوارق الدنيا ومقتضايات السياسة وتبدل الأحوال.. ونختارها من أجهر الأمثلة وأدناها إلى تأييد شبهات المستشرقين فيما زعموه من العقل المحدود، لنرى على قدر ضخامة هذه الأمثلة ضخامة الخطأ فى استخراج ما تدل عليه.

كان عمرو بن العاص واليًا لمصر وكان ابنه يجرى الخيل فى ميدان السباق، فنازعه بعض المصريين السبق واختلفا لمن يكون الفرس السابق. وغضب ابن الوالى فضرب المصرى وهو يقول: أنا ابن الأكرمين! فاستدعى عمر الوالى وابنه حين رفع إليه المصرى أمره، ونادى بالمصرى فى جمع من الناس أن يضرب خصمه قائلاً له. اضرب ابن الأكرمين! ثم أمره أن يضرب الوالى لأن ابنه لم يجرؤ على ضرب الناس إلا بسلطانه، وصاح بالوالى مغضبًا: بم استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ فما نجا من يده من صاحب الشكوى واعتذار مقبول.

وكان خالد بن الوليد أشهر قادة الإسلام فى زمانه فأحصى عليه عمر

بعض المآخذ ومنها إنفاقه من بيت المال فى غير ما يرضاه. فأمر به أن يحاكم فى مجلس عام كما يحاكم أصغر الجند، وعزله بعد مقاسمته فيما يملك من نقد ومتاع.

وكان جبلة بن الأيهم أميراً نصرانيًا فأسلم وأسلمت معه طائفة من قومه، ثم وطىء أعرابى إزاره فلطمه جبلة على ملأ من حجاج بيت الله. فقضى عمر للأعرابى أن يلطم الأمير على ذلك الملأ، لأن الإسلام لا يفرق بين سوقة وأمير.

هذه أمثلة العدل الذى لا يتصرف ولا يلتفت إلى الدنيا وما فيها من فوارق وتعريجات تتأبى على القصاص المستقيم، وهى من أقوى الشبهات على النظر المحدود فى تقدير الجزاء بالحرف المكتوب، دون التفات إلى الأحوال والمقتضيات.

فهل هى فى الواقع كذلك؟ وهل كان على عمر أن "يتصرف" فى هذه الأقضية بلباقة الساسة الدهاة فى جميع الأزمان يحتالون على حرف الشريعة ويدرون حول حدود القانون؟

نعم كان عليه ذلك لو عجزت عن سنة المساواة واحتاج إلى الحلية. فإنما يعاب على الوالى عدل الموازين ويحم منه التصرف والدوران لأن المساواة تعييبه، أو لأن المساواة تعرضه لعاقبة شر وأظلم من الإجحاف، فإذا نظر إلى عاقبة المساواة فى المعاملة فرآها شراً وأظلم من عاقبة التفرقة والتمييز فقد وجب إذا أن يدور حول الحقيقة وألا يواجهها نصًا بغير انحراف.

ولكن أين هذا من عمر وأين عمر من هذا؟ إنه كان قويًا قادراً على العواقب، وكان شديد الألم من ظلم الظلام شديد الخجل من خذلان المظلوم، وكان وثيق الإيمان بنصر الله فى الحق وفى النجدة. فلماذا ينحرف؟ ولماذا يتصرف؟ ولماذا يدور؟

كان قويًا بطبعه قويًا بإيمانه. فإذا يهاب قويًا جار على ضعيف؟ ولماذا يروغ من صرامة القاضى إلى دهاء السياسى الذى يدور حول الحقوق والحدود؟

للمستشرقين المتحدثين بالتفكير المحدود أن يأخذوا عليه تشهيره بكيار الولاة ويثبتوا به كل ما قالوه عن ذلك التفكير المحدود الذى ينسى الفوارق ولا يحتال على المحظورات، ولكن بشرط واحد.

ذلك الشرط هو أن يتوقعوا ولو من بعيد أن يثور ابن العاص ونظراؤه على هذا القصاص، فيختل حكم الدولة وينتشر الأمر على الخليفة ويقع من المحظور أضعاف ما كان واقعًا لو بطلت المساواة بين السوقة والولاة.

إما أن يكون ابن العاص ونظراؤه لا يثورون ويعلمون من هو عمر وما هى عقباهم إذا ثاروا عليه.

إما أن يكون عمر لا يخشى تلك الثورة ولا يعيا بها إذا هى فاجأته أو جاءته على غير انتظار.

وإما أن يكون الأمر فى ضميره وفى ضمائرهم يجرى على البديهة التى لا خفأ بها ولا شك فيها - فكيف يقال إذن إن تفكير عمر فى قصاص الولاة كباراً وصغاراً تفكير محدود؟ وأين هو فى هذه الحالة موضع التفكير المحدود؟

إنه فى موضع واحد، وهو كما أسلفنا موضع الناقد يصف عمر بغير وصفة، لأنه هو محدود الفكر فى قياس الرجال بمقياس واحد، أو فى اعتقاده أن الخطوب تبقى كما هى كلما تغيرت عليها أيدى الرجال.

لقد كان عمرو بن العاص خطراً على الخليفة الذى يغض منه لو كان غير عمر، ولكنه هو - والذين كانوا أجرأ منه على الفتك وأسرع منه إلى الغضب - لم يكن لهم من خطر إذا كان عمر هو الذى أمر بالعزل وهو الذى قضى بالقصاص.

فـاجرأ منه ولا ريب كـان خـالد بن الوليد، وأشـهـر منه بين سيـوف الإسلام لو عمد إلى السيف. ومع هذا نقـم خالد عزله فخطب الناس ومضى يقول: "إن أمـير المؤمنين اسـتعملنى على الشـام حتى إذا كـانت بثنية - أى حنطة - وعسـلا عزلى وآثر بها غيـرى". فما أتمهـا حتى نهض له رجل من السامعين فقال له: صبراً أيها الأميـر فإنها الفتنة. فما تردد خالد أن قال: أما وابن الخطاب حى فلا..

نعم، لا فتـنة وابن الخطاب حى ولو كان الغـاضب خاالداً الغـضوب، ومن هنا حق له أن يشكو ولا جناح عليه.

وأطرف من هذا فى هيبة عمر بين ولاته وقـواده أنه كتب إلى أبى عبيدة يأمره أن يقاسم خـالداً ماله نصفين، فقـاسمه جميع ماله حـتى بقيت نعلاه، فقـال أبو عبيـدة: إن هذا لا يصلح إلا بهذا فأنى خـالد أن يخالف أمر عـمر وأعطاه إحداهما وأخذ الأخرى.

لقد نظرنـا إلى عمر مـستقـيمً ولم ننظر إلى الخطوب، ولو نظرنا إليـها لرأينا أنها انثنت لتنقاد له وتتقى مصادمتـه وتستقيم على منهاجه.. فعلمنا لم استـقام دون أن يقـدحَ ذلك فى صدق نظـره إلى الدنيا وصـدق فراستـه فى خلائق الناس.

وندع قضايا الولاة فى قـضية الأمير الذى ارتد عن الإسـلام هو وقومه لأن عمر أجبره على قصاص المسـاواة بينه وبين رجل من السوقة. فماذا ينبغى أن يفعل عمر غيـر ما فعل من المساواة الصادقة بين الأميـر الضارب وخصمه المضروب؟

لعل داهية من دهاة السـياسة الذين يصفـون أنفسهم بالنظر البعـيد كان يؤثر إرضاء الأمـير واستبـقاء أتباعه فـى الإسلام والاحتيـال على الشاكى بما يواسيه ويغنيـه عن أن يسوى بين الخصمين، ويمكن لضعـيف من ضرب أمير اعتدى عليه.

فهل معنى ذلك أن عمر كـان يعوزه دهاء أولئك الساسة وما عندهم من بعد نظر مزعوم؟

كلا. بل معناه أن أولئك السـياسة يعوزهم السخـط على الظلم والغيرة على الحق واليقين بالقدرة والإيمان بمناعة الإسلام أن يصيبه غضب أمير صابئ بما بضيره، ولو كثر أتباعه والصائبون فى ركابه.

معناه أنهم احتاجوا إلى التصرف وعمر لم يحتج إليه.

وها هى ذى السنون قد مضت وتلتها الأحقاب والقرون فبدأ لنا اليوم أن النظر البعيـد والعدل الشديد فى هذه القضيـة يلتقيان، وأن عمـر كان أحسن المتصرفين فـيها لأنه اجتنب التصرف الذى يهواه الدهاة. فقـد أفاد الإسلام ما لم يفده بقاء جبلة وأتباعـه على دينه، ووقاه ضرراً أضخم وأوخم من نكوص أولئك الصائبين عنه. أفاده ثقة أهله بإقامة أحكامه واطمئنان الضعفاء إلى كنفه ورهبة الأقوياء من بأسه وسمعتـه فى الدنيا برعاية الحق وإنجاز الوعد وتصديق معنى الدين، ولا معنى له أن كان أضعف بأسا من أمير وجب العقاب عليه.

ويجوز أن الفـاروق لم ينظر إلى عواقب القـرون كما ننظر إليـها الآن، بعد أن برزت من حيـز الفرض إلى حيز العيان. غيـر أن الأمر الذى لا يجوز فى اعتـقادنا أنه عدل فى قـضية جـبلة ونظائرها عدل آلة أو عدل مـيزان. إن الميزان لأقل من مخلوق له حيـاة. أما الفاروق فى هذه القضية فقـد كان أكبر من الحياة الفانية، كان بطلاً يؤمن ويعمل بإيمانه، وهكذا يعلو الإنسان ببطولة الإيمان.

والعبـرة التى تخرج بهـا من هذا أن النظرة الأولى فى أخلاق عـمر بن الخطاب حسنة ولكن النظرة الثانية هى على الأغلب الأعم أحسن من الأولى.

فالناقدون الأوروبيـون الذين فسروا عدله المستقـيم القاطع بالنظر الضيق والفكر المحدود لم يفهموه ولم ينصفوه، ولو فهموه وأنصفوه لعلموا أن عدله

المستقيم القاطع زيادة فى القدرة وليس بنقص فى الفطنة، أو أنه زيادة فى قوة الثقة وقوة الإيمان وليس بنص فى العلم والبداهة، ولم يكن عسيراً عليهم أن يفقهوا ذلك لو راجعوا أنفسهم وتريثوا فى حكمهم، لأن قوة الثقة وقوة الإيمان لا تخفيان فى خلق من أخلاقه ولا عمل من أعماله، ولا تزالان ممزوجتين فيه بكل أقدام وبكل إحجام. فكان يقدم على أعظم الخطوب ويحجم عن أهون الهينات تحرجا منها وتنزها عنها، إذا اقتضى ذلك وازع من قوة الإيمان.

فلم يكن يمضى قدمًا لأنه يغفل عما حوله من النواتىء والمنعرجات والسدود، بل كان يمضى بينهما قدمًا لأنه لا يباليها ويؤمن أصدق الإيمان أنها تنثى له إذا مضى فيها، فلا حاجة به أن ينثى إليها.

إنه ليعلم العوج ولكنه يعلم أنه أقدر منه، لأنه يؤمن بحقه إيمان القوى الوثيق، فله من قوته ومن إيمانه ومن إيمان قدرتان.

إنه ليرفع العبء إلى كاهله وهو قئم لا يطأطىء للنهوض به، فليس الفارق بينه وبين غيره أنه يجهل العبء الذى يعرفونه، أو ينسى العواقب التى يذكرونها، أو يتحلل من المصاعب التى يتحرجون منها.. كلا! إنما الفرق بينه وبينهم أنهم ينثنون للخطوب، وأن الخطوب هى التى تنثى إليه.

هذه القوة فى إيمانه كانت هى المسيطر الأكبر على كل خلق من أخلاقه، وكل رأى من آرائه، بل كانت هى المسيطر الأكبر على ما هو أصعب مقاداً من الأخلاق والآراء، وأشد عراماً[1] من العقائد والشبهات، وهى دوافع وسورات الغريزة، وقلما خلا منها طبع قوى عزوف غيور.

فالأفكار والأخلاق جانبان من جوانب النفس الإنسانية قابلان للضوابط والقيود ولكن ما القول فى الدواقع والسورات؟

---

(١) أشد عراما: أشد شراسة وشدة.

مثل الفكر كمثل السفينة الطافية على وجه النهر لها شراع ولها سكان، وعليهما معًا رقيب من النواتية[1] والربان[2].

ومثل الخلق كمثل النهر المتدفع تحسبه الشواطىء والقناطر ويفيض في موعد ويعرف له مجرى، ويحسب له مقدار.

ولكن ما القول في السيل العرم؟

ما القول في السورة الجامحة التي ليست بفكر ويساس، ولا يخلق متميز بسمائه وخصائصه ومراميه!؟

هنا تبدو لنا قوة الضوابط والقيود.

وهناك أيضًا كانت ضوابط الإيمان القوى في نفس عمر كأقوى ما تكون.

ولا أحسب أن قلبه الكبير جمحت به في الجاهلية أو الإسلام سورة أكبر من سورته يوم نعى النبي إلى المسلمين، فأنكر أن ينعى وأبى أن يسمع صوتًا بين المسلمين يزعم أن محمدًا قد مات، صاح الناس في رهبة منه كرهبتهم من شبح الموت المخيم يومئذ على الرءوس: "والله إني لأرجو أن تقطع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه قد مات".

ثم أقبل أبو بكر من مسكنه على فرسه، فنزل فمشى وئيدًا صامتًا لا يكلم أحدًا، وتيمم النبي وهو مغشى بالثوب، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله، وبكى. ثم أحس صولة عمر وهو يكلم الناس، فخرج إليهم فقال: اجلس يا عمر!.. وأقبل على المسلمين يكلمهم بكلام السماء: "أما بعد، فمن يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.. وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو

---

(١) النوتي: الملاح في البحر خاصة جمعه النواتي.

(٢) الربان بضم الراء: من يجري السفينة.

قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين".

فأهوى عمر إلى الأرض وأناب.

وكأنه والمسلمين معه ما علموا أن أنزلت هذ الآية حتى تلاها عليهم أبو بكر تلك الساعة.

يالروعة الشلال الزاخر؟

وبالروعة السابح القاهر الذى لوى به ليًا كأنما قبض منه على عرف، وأخذ له بعنان!

أكبر ميدان من ميادين الدنيا لا يرينا صراعًا عاتيًا هو أولى بالروعة من نفس عمر وهى متراوحة بن شعوره الزاخر وإيمانه الوثيق.

لحظة هائلة من أهول ما تحس النفوس، ثم انهزام كأسرع ما يكون الانهزام، وانتصار كأسرع ما يكون الانتصار، وغاشية تتجلى عن صاحب تلك النفس وهو مالك لزمامه، ماض بشعوره إلى حيث يمضى به إيمانه، فهما قوتان غالبتان، وليستا بعد بالعسكرين المتغالبين.

لقد كانت تلك سوراته الكبرى ولكنها لم تكن أولا سوراته ولا أخراها.

فقد عهدت هذه السورات فى طبعه حتى عرف من عهدها كيف يسوسونها ويتقونها، وأوشكت أن تحسب فى عداد الأنهار المحكومة ولا فى عداد السيول الجارفة انطلقت من عقالها.

ذهب إليه بلال مستأذنًا فقال له أنه نائم، فسأله: كيف تجدون عمر؟ قال: خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم. قال بلال: لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه!

فهو الإيمان ضابط كل شيء في تلك النفس حتى السورات التي ليس لها ضابط في النفوس.

أو قل إنها هي النفس القوية في دفعاتها وفي ضوابطها على السواء.

ورب نفس من ضعف الدفعة بحيث يقعمها أهون ضابط يسيطر عليها، فأما الدفعة التي لا يقف في طريقها إلا ضابط أقوى منها فتلك هي الطبيعة الحيوية المضاعفة، وليست هي الضعف الذي يتزاجع لأهون مراجعة.

نذكر هذا وينبغي أن نذكره ولا ننساه، لأن الفرق بين الإيمان الذي يكبح الهزيل المنزوف الحياة وبين الإيمان الذي يكبح القوى الجياش فرق عظيم.

ولم يكن عمر معرضًا عن زخارف الحياة لهزال كان في دواعي الحياة فيه. وإنما كان معرضًا عنها لأنه ان قادرًا على الإعراض غير ممتحن به في إرادة ولا عزيمة.

وكان معرضًا عنها لأنه صاحب حيوية غير الحيوية الجسدية الموكلة بالسرور والمتاع.

فمن الواجب إذا ذكرنا الحيوية وضعفها وقوتها أن نذكر أبدًا أنها حيويات متعددة وليست بحيوية واحدة.

حيوية الروح وحيوية الخلق، وحيوية الذوق، وحيوية العقل وحيوية الجسد وغير ذلك كثير مما يتداخل بين هذه الحيوات.

فليس من الضروري إذا رأيت رجلاً قليل الاشتهاء لمتعة الأجساد أن تحكم عليه بضعف الحيوية، فربما كانت له حيوية أخرى تملأ الوفا من النفوس لا تجد متاعها في أكلة أو شهوة وتجد المتاع في إحقاق الحق وزجر الطغيان وإقامة العدل والشريعة بين الناس.

وهكذا كانت حيوية عمر فيما يريده وفيما يزهد فيه.

لم تكن قلة الرغبة فى زخارف الدنيا هى مقياس حيويته العظمى وإنما كان مقياس تلك الحيوية عِظم الرغبة فى الإصلاح والتقويم، وفى إجراء ما ينبغى أن يجرى. غير مبال ما يكلفه ذلك من جهد تتضاءل دونه جهود الألوف من الموكلين بمتاع الأجساد.

تلك صورة مجملة للصفات الخلقية الكبيرة التى كانت غالبة على نفس عمر ابن الخطاب، وهى العدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان.

وأول ما يلاحظ عليها تعدد الصفات الغالبة فى نفس واحدة، وصفة واحدة منها قد تغلب على النفس - وليست بصغيرة - فتنعتها وتستأثر بتمييزها والدلالة عليها.

ثم يلاحظ عليها أن الصفة منها تتصل بعمر بن الخطاب فتأخذ منه وتصطبغ بصبغته، حتى كأنها لم تعهد فى غيره على شيوعها وكثرة المزسزمين بسماتها.

إلا أن هذا وذاك ليس أعجب الملاحظات ولا أندرها فى هذا السياق، وإنما العجب العاجب حقًا هذا التركيب الذى ندر مثيله جداً بين خصائص النفوس كأننا ما كان نصيب صاحبها من العظمة والامتياز.

وأحرى بنا أن نقول "هذه التركيبة" ولا نقول هذا التركيب، لأن صفاته الكبيرة تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذى ينفع لغرض واحد مفهوم، والذى ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط.

إذا نظرت إلى تلك الصفات أجزاء متفرقات فهى سهلة بسيطة ليس فيها شىء عويص أو مكتنف بغموض.

ولكنك تنظر إليها مركبة متناسقة فيبدو منها جانب الدهشة والإعجاز، أو جانب الندرة التى يعز تكراها، فى طبائع النفوس، لأنها تتركب لاستيفاء الغرض منها جميعًا واستيفاء الغرض فى كل منها على حدة، وهذا هو النادر جد الندرة فى تركيب الأخلاق.

ما العدل مثلا بغير الرحمة التى تمزجه بالإحسان؟ وما العدل والرحمة معا بغير الحماسة الروحية والغيرة اليقظى التى تجعل المرء للظلم كأنها كراهة الضرر الذى يصيبه فى نفسه وآله حبه للعدل كأنه حب هواه وقبله مناه؟ وما العدل والرحمة والغيرة جميعًا بغير فطنة تضع الأمور فى مواضعها وتعصم المرء أن ينخدع لمن لا يستحق ويغفل عمن يستحق وهو حسن القصد غير متهم الضمير؟ وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الإيمان الذى هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع، والمرجع الذى لا مرجع بعده لطالب الإنصاف؟

كل صفة تتمة لجميع الصفات.

وكل الصفات روافد لغرض واحد يتم به نصر الحق وخذلان الباطل.

وكل خليقة فهى جزء لا ينفصل من هذه "التركيبة" التى اتفقت أحسن اتفاق وأنفع اتفاق، وكأنما اتفقت لتصبح كل خليقة منها على آتم قدرتها فى بلوغ كمالها وتحقيق غايتها. فلا نقص فى العدل كالنقص فى كل عدل يعمى عن الطبيعة البرية ويذهل عن ضعف الإنسان. ولا نقص فى الغيرة كالنقص فى كل غيرة ظالمة قاسية كأنها ضراوة وحش وليست بحماسة روح.

ولا نقص فى أولئك كله كالنقص فى جميع الصفات بغير الفطنة التى تخرج بها من ظلام إلى نور، وبغير الإيمان الذى يقف منها موقف الحارس الساهر والرقيب الأمين.

صفات متراكبة كأنها صفة واحدة يأخذ بعضها من بعض فلا تتعدد فى مرآها، ولا تزال فى صورة البساطة بعيدة عن التركيب، فيخطىء النظر القصير فى التفرقة بين هذه الظاهرة النفسية الرائعة وبين ظاهرة الشىء البسيط المحدود، وأنه لخطأ شائع ينساق إليه كثيرون ممن يستسهلون بساطة عمر، وهى أولى بالروعة من تركيب يختلط من كل مزيج، ثم نريد فى الألوان فى الإتمام والتوحيد والإتقان.

ولو أن مخترعًا من أهل القصص حاول أن يخترع سيرة عمر بن الخطاب لأعياه أن يخترع ذلك الشتيت المتفرق من الأخبار والأحاديث والنوادر ليقرأه القارىء بعد ذلك فيقبل منه ما يقبل ويسقط منه ما يسقط، ثم يبقى ما يدل أصدق الدلالة على كل صفة من تلك الصفات.

فلا اختراع فى جملة أخبار عمر وإن جاز الشك فى بعضها أو جاز إسقاط الكثير منها، ومن شاء فليشك فى هذا الخبر أو ذاك ما بدا له الشك وليسقط منها ما بدا له الإسقاط، فسيبقى بعد ذلك جميعه خير يدل على عدله ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدل على رحمته ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدل على غيرته ولا سبيل إلى نقضه، ويبقى ذلك التركيب ا لعجيب هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل. مصادر الأخبار.

هذه هى المعضلة التى عيناها حين قلنا فى صدر هذا الفصل أن سهولة عمر وخلو طبائعه من التعقيد والغموض هى سهولة أصعب من الصعوبة، لأنها تنتهى بك إلى صعوبة التركيبة التى هى أندر من التعقيد والغموض، ونريك عناصر شتى قد تتناقض فى غير هذا التركيب ولكنها هنا لا تتناقض فى شىء ذى بال، لأن التناقض أن يذهب كل عنصر فى وجهة معارضة لسائر الوجهات، فأما أن تكون كلها ذاهبة فى وجهة واحدة فذلك عنصر واحد متعدد الأجزاء والألوان. ولهذا كانت دراسة عمر غنيمة لكل علم يتصل بالحياة الإنسانية كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسة، ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى. لأن كل نفس صغرت أو كبرت فهى إنسان يضيف العلم به إلى علم النفس بعض الإضافة.

ولكن ليست كل النفوس التى تصحح أوهام الواهمين فى فضائل الأخلاق وفضائل الاجتماع، وفى ا لقدوة المثلى التى يقتدى بها طلاب لرفعة والسيادة.

ونحن فى عصر شاعت فيه فلسفات مسهبة تنكر الرحمة والعدل على الأقوياء الغيورين وتحسيهما حيلة من حيل الطبع فى خلائق الضعفاء لاستدامة البقاء. كأن رحمة الضعيف تنفعه إذا رحم، وكأن عدل الضعيف ينفعه إذا عدل، أو كان القوى يخلق نفسه لنفسه ولا يخلق قويًا لتنفيذ قوته فائدتها فى خدمة المحتاجين إليها.

فعمر ذو البأس والعدل، وعمر ذو الرحمة والغيرة، أصدق تفنيد لذلك الوهم الأخرق البليد. إذ كانت رحمته وعدله لا تناقضان البأس والغيرة فيه، بل كان بأسه معوانًا لرحمته وكانت غيرته لعدله، وكان هو قويًا لينتقع الناس بقوته، ولم يكن قويًا ليطغى بقوته على الضعفاء.

ولم يكون لزامًا أن يقسو ذو البأس ولا يرحم؟

ألا يقسو الضعيف؟ فلم العجب إذن رحمة القوى؟ كل ما هنا لك أن رحمة الضعفاء غير رحمة الأقوياء. فأما العقل الذى يرى الرحمة غريبة فى الأقوياء، ويرى القسوة غريبة فى الضعفاء فهو يرى غير الواقع من هؤلاء وهؤلاء. إذ الواقع فى الدنيا أن القسوة لا تدل على القوة، وأن الرحمة لا تدل على الضعف، وأن ليس فى الدنيا أقسى من الأطفال وهم أضعف من فيها من الضعفاء.

وبغير إمعان طويل فى دقائق النفس الإنسانية استطاعت امرأة محزونة أن تفرق بين الخصلتين وتجمع بينهما معًا فى عمر بن الخطاب ونعنى بها عاتكة بنت زيد حين قالت فى رثائه:

رؤوف على الأدنى غليظ العدى أخى ثقة فى النائبات منيب

وهى تفرقة سهلة ولكنها صادقة جامعة، فغير عجيب أن يكون إنسان كذلك، وإنما هو أوفق شىء لطبائع الأشياء.